مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية
مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية ● مكتبة عربية

فاعلية الرؤية في شعر حسن فتح الباب

قراءة في ديوانه الجديد "أحداق الجياد"

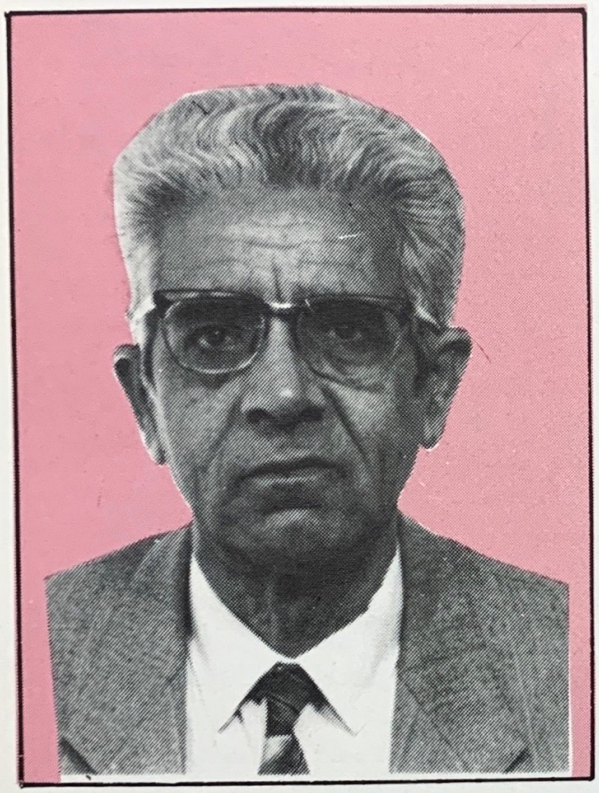

في رؤية شعرية جديدة يخطو الشاعر الكبير د. حسن فتح الباب خطوة مميزة نحو الفعل الشعري التشكيلي الذي يرتكز في محتواه على شعرية الصورة وتكثيفها وتفاعل الدوال وإخصابها وإقامة علاقات مغايرة للمألوف إرهاصاً بخلق بنية تصويرية إبداعية تنتج الواقع وتعيد صياغته شعريا.

ففي ديوانه العاشر «أحداق الجياد» الصادر في نوفمبر ١٩٩٠ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، والذي يقدم فيه الشاعر حسن فتح الباب تجربة جادة ثرية وعميقة تمتاح من تجاربه السابقة الفعلية فتنوع عليها وتماهيها، تحاورها وترصد إيغالها الواشي في النفس في كينونتها الباعثة على الدهشة والطافحة بالدلالة.

في هذا الديوان نلمح تغيراً لدى شاعرنا عن دواوينه السابقة وهو قربه الشديد من النص وبنيته الشكلية. فمعظم نصوص الديوان قصيرة على شكل «السوناتا»، إلا أن الشيء الباده هنا هو أن هذه النصوص القصيرة متشابكة، إنها تتحدث بلغة متوافقة مضمونياً، تدور حول أشياء عامة، خصوصية في آن واحد، فهي عامة لأنها تنتقي مردوديتها من الطبيعة والإنسانية والكون والبحر والأشجار والسماء وما فيها.. إلخ، وخصوصية لأنها تمثل تجربة الشاعر وحدسه بالأشياء وتخابره معها وهصره لها.. فيرمز الشاعر فيها الواقع والذات ويكشف رؤيته فيقول:

بقلم : عبد الله السمطي
مصر

ولدتُ تحت عالم لم يُكتشف
ولم يكن له سفين
فلم أجد طفولتي
وكانت اللعبة أن أصمتَ
كي أسمع ما لا يبصرون
فكان صمتي.. ظل بيتنا بغير سقف
ومعطفي صدى رياح تختفي
في قاعها السحيق طلعة الشموع
طفل بغير معطف
ولا دموع

إن الهاجس الشعري في هذا الديوان والذي يتمثل في الاختزال، اختزال الواقع إلى حلم، والحلم إلى لغة، واللغة إلى نص شعري له هيكله وبنيته وله سمته وميسمه النام، هذا الاختزال الذي بدأ في الدواوين الأخيرة للشاعر خاصة في «مواويل النيل المهاجر» و«وردة كنت في النيل خبأتها» يتحرك فيه الشاعر بتكثيف وإدراك لطبيعة النص القصير أو ما يمكن تسميته بالنص الصوت، ويستند هذا الاختزال على رؤيتين:

الرؤية الأولى كونية : وهي تعيد صياغة الكون شعرياً، تحادثه، تضرم نار الكلمات بأسطره، تعبر عن مفرداته الجمالية: البحر، المطر، الشمس، السماء، الأرض، الريح، الأشجار، الطيور... إلخ. ولكن هذه المفردات تضيء ذاتها من خلال الدخول في حومة التجربة الذاتية وتفاعلها بها.

الرؤية الثانية جمالية : وهي تختزل اللغة، توتر صورها ودلالاتها وتؤطر البنية اللغوية بإطار مورفولوجي «تشكيل

المنتدى ٩٢/٦

خارجي»

وقد تعامل الشاعر مع اللغة في عدة مستويات:

● **اللغة التشكيلية : والمقصود بها تجميل النصوص بمفردات في طبيعتها شاعرة، رومانسية، شجية كالربيع والأشجار والبحر والنهر مثلاً.**

● اللغة الدرامية : وتخلف تراكماتها في أنا الشاعر من خلال تحدثه عن تجاربه وشجونه، عن رحلاته الواجعة نحو الحرف وإبداعه..

● **اللغة المجازية : وهي التي يضمر فيها الشاعر مشاغله ويرمز فيها نصوصه موحياً بها بحيث نستطيع أن نشعر وقد حملتنا سحابة وراء الكلمات عند قراءتها لها كما يقول الناقد ليوسبتزد.**

يقول الشاعر :

عادت إليّ حكمتي معصوبة العينين
ولم يعد قلبي الخلّي
وكان حزني أنني أحزنْ
وأنّ من لديه ما أريدُهُ
لا يعرف الأحزان.

وإذا كان متن الديوان يضم ٦٢ قصيدة فإن ثماني قصائد منها طويلة وهي: (غريب في القرية ـ أحداق الجياد ـ دم على البحيرة ـ متولي ـ الجبل ـ أنت وأنا ـ العودة إلى البحر ـ استطرادات في قصة أليس). ويقودنا هذا الفصل بين القصائد الطويلة وبين القصيرة إلى تساؤل هام هو: هل تختلف هذه القصائد في بنيتها وأسلوبها؟ وهل تأخذ الصورة الشعرية أبعاداً مغايرة فيها؟

ومن خلال قراءتنا لقصائد الديوان تتجلى لنا عدة فروق بين النمطين:

● القصائد الطويلة تجيء في شكل سياقي قصصي يستخدم فيه الشاعر تقنيات القصة كالسرد والحوار والوصف والتعبير عن الحدث، ولكن في فعل شعري درامي يجسد المواقف المختلفة.

أما القصائد القصيرة فهي ومضات تحمل شحنات غنائية عالية التوتر تتآلف فيها المفارقة الحادة الجارحة الساخرة معاً مع التشكيل التصويري:

أعرف كل الأموات
هل يختلف الأحياء عن الموتى؟
الليلة طالعها نجم غائب
والرؤيا مجداف دامٍ وشراع أخضر
وبقايا بحار لم يغرّقه القهر

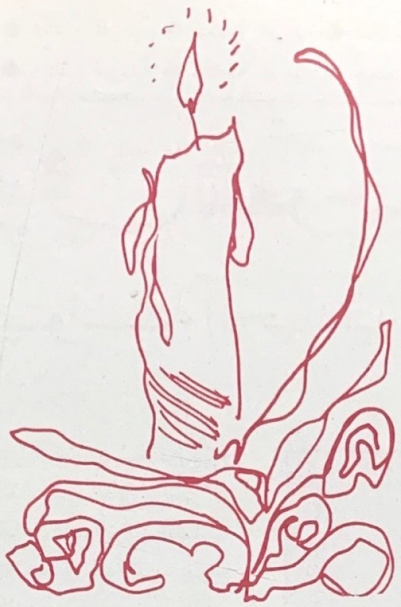

هل تسرج مصباحك في ضوء الشمس؟

إن الشاعر حسن فتح الباب في قصائده القصيرة يستخدم الرمز بشكل طاغ، يلمح ويكني ولا يصّرح، يختزل اللغة، يختزل الصورة الشعرية، بالإضافة إلى التركيز والتكثيف الشديدين للدّوالّ، ويناط التعبير عنده في هذه القصائد القصيرة بعدة أبعاد:

١ ـ **التناصّ** والاتكاء على الموروث الثقافي في تشكيل الصورة حيث يرتاض الشاعر بذاكراته بين العناصر الثقافية العربية والغربية الموروثة، ويتداخل عنده التراث الإسلامي والمسيحي ولكن بشكل رامز مكثف، فيتلاقى أبو ذر الغفاري وبنو أمية مع **سالومي** ويوحنا المعمدان.. يتلاقى لوركا وإليوت مع المتنبي وأبي العلاء.. حيث يقوم حسن فتح الباب باختزال الموروث وتماهيه في نصوصه، كما يوظف أيضاً قصة «الغار» وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فتتداخل الآيات نصياً مع الأسلوب الشعري مشفرة إياه ومعضدة بنيته:

يا حسرتا على العباد...
ما يأتي من القرى مصدِّقٌ
إلا افتروا.. كانوا به يستهزئون
حين رموني بالجنون
أيقنت أنني المقاتل الذي
ما عاد منصوراً ولا شهيداً

٢ ـ التفاعل الدرامي بين الدّوالّ

٣ ـ المفارقة (التضاد)

٤ ـ التكرار (الترديد)

٥ ـ التوازي بين الذات وبين الخارج.

وسنتخذ نموذجاً يمثل كل هذه الأبعاد:

أعطيتها أوسمتي
الفارس الذي ترجل
كان مغنياً رقيق الصوت والإهاب
وكان حاملاً صليبه يوم ارتحل
وسترة.. وقُبَّعه
أودعتها أغنيتي.. طارت بها
شرارة حمامها حطّ على قلبي
على البيادرْ
وأودعتْ حنيني الحفائرْ
نفته من ضلوعها
غاصت قوائمي.. أنا غريمها
رجعت بعد ألف عام
أنا الجواد الطاعن المكابرْ

إن الصورة في المقطع السابق تتخذ أبعادها المذكورة آنفاً، فالفارس الذي ترجل بأخلاقياته الشجاعة يومىء إلى الشاعر نفسه، فتتداخل ذاته وتضاد ـ في نفس الوقت ـ مع الواقع، فتجيء الدّوالّ متوترة درامياً: فارس وفي الآن ذاته يحمل صليبه ـ الأغنية شرارة ـ البيادر الحفائر.. فهنا يتم تفاعل خصب بين الدوال المتضادة المتباعدة، حيث إن تجاورها يقيم فيما بينها حواراً هاماً يستطيع القارىء المتحفز اكتشافه والتمتع باستماعه وقراءته.

كما أن المفارقة تتجلى بوضوح في نهاية المقطع، وتنقلنا إلى فكرة البعث عند الإغريق ومن قبلهم عند الفراعنة، وإلى الطائر الفينيقي الذي يُبعث كل عام في الربيع، إلا أن الشاعر استعار هذه الفكرة الميثولوجية (الأسطورية) لحصانه الأسطوري.

بهذه الميزات الأسلوبية والبنائية نستطيع الدخول إلى الرواق الشعري لدى حسن فتح الباب الذي ما زالت التجربة الكونية تفض حروفه، وتشعل فواصله وتفعيلاته.. في تجارب شعرية هاصرة واعية بطبيعة الموقف والحياة. فشعره ابن شرعيّ للواقع.. فهو لا يكتب من تراكمات الذاكرة اللغوية، إنما يحول ما على شفاه الناس إلى شعر، لهذا فهو شديد التمسك بالواقع في شعره منذ صدور ديوانه الأول «من وحي بورسعيد» سنة ١٩٥٧ حتى «أحداق الحياد».. وبين هذين الديوانين تقع رحلة الشاعر وتمرسه بالحياة والفن وعذابات الشعر الجميلة.